دلالات وفوائد آخر ما نزل من القرآن الكريم

Title in English: Significances and benefits of the last that came down from the Holy Quran

نورالدين بابه *

جامعة أحمد دراية–أدرار

babanoureddine@univ-adrar.edu.dz

محمد عبد الحق بكراوي

جامعة أحمد دراية–أدرار

bekraoui55@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/02/21 تاريخ القبول 2023/04/29 تاريخ النشر 2023/05/14

ملخص:

نزل القرآن الكريم منجما، ومفرقا على مدى فترات عديدة، وسنوات مديدة، ولكل آية فيه دلالات تُستخلص، وفوائد تُجنى، ولكن آخر آية نزلت منه مؤذنة بنهاية الوحي لها وقع خاص في النفوس، وأثر بالغ في القلوب؛ لما تحمله في مضامينها من دلالات، ومعان سامية، وفوائد عظيمة، عقائدية، وأخلاقية، ووعظية، أراد الله إيصالها للبشرية؛ لتستعد للرحيل إلى اليوم الآخر، وتتأهب للقاء ربها.

الكلمات المفتاحية: دلالات؛ فوائد؛ آية؛ القرآن الكريم؛ آخر ما نزل.

Abstract:

The Holy Qur'an was revealed in portions and separated over many periods and long years. Each verse in it has significances that are deduced and benefits are reaped, however, the last verse that came down from it announcing the end of the revelation has a special impact on the souls, and a profound impact on the hearts.

* المؤلف المراسل

It carries in its contents significances; sublime meanings; great ideological, moral and preaching benefits that God wanted to deliver to humanity in order to get ready to leave to the last day and prepare to meet their Lord.

***Key words*:** Significances; benefits; verse; The Holy Quran; The last that came down.

مقدمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبذكره تتنزل الرحمات والبركات، وأصلي وأسلم على خير البَرِيّة، وأفضل من وطئت قدماه البَرِّيّة، محمدﷺ، وبعد:

القرآن الكريم كلام الله، أنزله على محمدﷺ؛ لهداية البشرية، وإخراجها من الضلال إلى الرشاد، ومن ظلام الجور إلى نور العدل، ومن فساد المعتقد إلى صلاح العقيدة، ومن سوء الأخلاق إلى حسنها.

ولقد جاءت آياته كلها من أجل تحقيق مقاصد سامية، وأهداف نبيلة، وحملت جميعها بين ثناياها دلالات، ومعان عظيمة، تدل على عظمة القرآن الكريم، وفوائد جنية، ودرر فريدة من بحره الزاخر، الذي لا ينضب، ولا ينفد.

وإن آخر ما نزل من القرآن له وقع خاص في النفوس، وتأثير بالغ على القلوب؛ لما يحمله في مضامينه من دلالات سامية، ومعان رفيعة، وفوائد عظيمة؛ تحفز الإنسان على التأهب للقاء الله، والاستعداد للرحيل إلى اليوم الآخر، والتزود بالتقوى؛ التي بها نجاته وفوزه، وترسخ في قلبه العقيدة الصافية النقية، وتصحح انحرافاته، وتقوِّم سلوكاته، وتهذب أخلاقه؛ وتحقيقا لتلك المقاصد والأهداف النبيلة، أحببت أن أفرد بحثا وسمته بـ "**دلالات وفوائد آخر ما نزل القرآن الكريم**".

وتكمن إشكالية البحث فيما يلي:

ما المراد بمرحلية نزول القرآن الكريم؟، وما هي آخر آية نزلت منه؟، وما هي دلالاتها، ومعانيها، وفوائدها العقائدية، والأخلاقية، والوعظية؟

ويهدف البحث إلى تحقيق ما يلي:

-بيان عظمة القرآن الكريم، وقدسيته، وتأثيره في النفوس.

-ترسيخ العقيدة الصحيحة في القلوب، وتصحيح الانحرافات العقائدية.

-تقويم الانحرافات السلوكية، والأخلاقية للإنسان، وغرس القيم النبيلة.

-شحذ الهمم للمسارعة إلى الخيرات، وتجنب المنكرات، والتسلح بالتقوى، والإعداد ليوم المعاد.

-إدراك حقيقة الدنيا والآخرة، ومعرفة الوظيفة التي من أجلها خُلق الإنسان في الحياة الدنيا.

واعتمدت في بحثي على المناهج العلمية البحثية التالية:

-المنهج الوصفي: استخدمته في توضيح مرحلية نزول القرآن الكريم، وبيان آخر ما نزل منه.

-المنهج الاستنباطي: وظفته في استخراج دلالات ومعاني آخر آية نزلت من القرآن الكريم، واستخلاص فوائدها.

ولقد قسمت البحث إلى مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وسرت في إعداد البحث على الخطة التالية:

مقدمة: ابتدأتها بتمهيد، وذكرت فيها إشكالية البحث، ثم أهدافه، وتلتها المنهجية المتبعة فيه، وختمتها بخطة البحث.

المبحث الأول: مرحلية نزول القرآن الكريم، وبيان آخر ما نزل منه.

المبحث الثاني: الدلالات والفوائد العقائدية لآخر ما نزل من القرآن الكريم.

المبحث الثالث: الدلالات والفوائد الوعظية والأخلاقية لآخر ما نزل من القرآن الكريم.

خاتمة: ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها في البحث.

أسأل الله تعالى أن يجعل البحث خالصا لوجهه الكريم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول:

مرحلية نزول القرآن الكريم، وبيان آخر ما نزل منه

اقتضت حكمة الله أن ينزل القرآن الكريم على مراحل وأجزاء ودفعات، في أزمنة متفرقة، ومتفاوتة حتى ختم الله نزوله بالآية التي سيتكفل هذا المبحث ببيانها، وتجليتها بعد ذكر مرحلية نزول القرآن والحكمة منها.

المطلب الأول: مرحلية نزول القرآن الكريم، والحكمة منها.

الفرع الأول: مرحلية نزول القرآن الكريم.

نزل القرآن الكريم من عند الله على مرحلتين[1]، لكل مرحلة طبيعتها وميزتها؛ تحقيقا لمقاصد شرعية، وإعلاء لشرف كتاب الله وعلو منزلته، فكل مرحلة تشكل حلقة مهمة في إنزال الوحي الرباني، فلا انفصام بين الحلقتين.

ففي المرحلة الأولى نزل القرآن الكريم من عند الله نزولا سماويا دفعة واحدة إلى بيت العزة في السماء الدنيا ليلة القدر[2]، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في سورة القدر، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّآ أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ**﴾[القدر:1]، وقوله تعالى في سورة الدخان: ﴿**إِنَّآ أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ**﴾[الدخان:3].

وفي المرحلة الثانية نزل القرآن الكريم نزولا أرضيا؛ لربط السماء بالأرض، ورفع البشرية من الحضيض إلى القمة، والسمو بالإنسانية من دونيات الأمور، وسفاسفها إلى معاليها.

وكان نزوله في هذه المرحلة مفرقا ومنجما حسب الوقائع، والأحداث المتزامنة مع حياة النبيﷺ ودام نزوله في هذه المرحلة أكثر من عشرين سنة[3]، وقد نص على ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا**﴾[الإسراء:106].

الفرع الثاني: الحكمة من مرحلية نزول القرآن الكريم.

البند الأول: الحكمة من نزوله دفعة واحدة.

تكمن الحكمة من نزول القرآن الكريم دفعة واحدة إلى بيت العزة في السماء الدنيا في الأمور التالية:

إعلاء شأن القرآن الكريم، وتفخيم أمره، ورفع قدر النبيﷺ، وتعظيم شأنه لدى أهل السموات[4]، وإنزال الرحمة من الله على أمة محمدﷺ بوضع القرآن الكريم في حد الدنيا (بيت العزة)، ووضع النبوة في قلب محمدﷺ، وتكريم بني آدم وتعظيم شأنهم عند الملائكة، والتسوية بين محمدﷺ، وموسىعليه السلام في إنزال القرآن الكريم جملة واحدة كما نزلت التوراة جملة واحدة، وتفضيل محمدﷺ في إنزال القرآن الكريم بعد ذلك مفرقا[5].

البند الثاني: الحكمة من نزوله مفرقا.

نزل القرآن الكريم مفرقا ومنجما؛ لتقوية قلب النبيﷺ، وتثبيت فؤاده؛ ليكمل مشوار تأدية الرسالة التي كلفه الله بها، ويواصل طريق الدعوة المنوطة على عاتقه، وتقوى نفسه لمجابهة الصعوبات، ويدخل السرور إلى قلبه، وتزول عنه الهموم والغموم، قال الله تعالى: ﴿**وَقَالَ الذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِتَ بِهِ فُؤَادَكَ**﴾ [الفرقان:32]، وتسهيل حفظ النبيﷺ للقرآن الكريم، فقد كان أميا لا يقرأ، ولا يكتب، والقرآن الكريم فيه الناسخ والمنسوخ، وهذه الصفة يناسبها النزول المفرق[6].

المطلب الثاني: بيان آخر ما نزل القرآن الكريم.

الفرع الأول: اختلاف القول في تحديد آخر ما نزل من القرآن الكريم وأسبابه.

اختلف الصحابة والتابعون في تعيين آخر ما نزل القرآن الكريم[7]، ولقد أحصى السيوطي في كتابه "الاتقان في علوم القرآن" عشرة أقوال في المسألة[8]، وتابعه الزرقاني في كتابه "مناهل العرفان في علوم القرآن"[9]؛ ويرجع اختلافهم إلى الأسباب التالية[10]:

-انعدام النص والاعتماد على الاجتهاد، ففي ظل عدم وجود حديث ثابت مرفوع إلى

النبيﷺ يبين آخر ما نزل من القرآن الكريم؛ اعتمد الصحابة والتابعون من بعدهم على الاجتهاد، وغلبة الظن.

-إخبار الصحابة بآخر سماعاتهم؛ وذلك بأن يخبر كل صحابي بآخر آية سمعها من النبيﷺ قبل وفاته، أو قبل مرضه بقليل، ويعتقد كل واحد منهم أن ذلك آخر ما نزل من القرآن الكريم، فيحصل بذلك اختلاف في المسألة.

-وجود اشكال في عبارة "آخر ما نزل"؛ مما أدى إلى اختلاف المقصود منها، فقد يوردها الصحابي في كلامه، ومقصوده ليس على إطلاقه، وإنما يريد به أمرا معينا، كعدم وجود آية بعدها تنسخها، أو آخر آية أو آيتين في سورة، أو آخر ما نزل من السور، أو قصده آخر آية في باب معين كالفرائض، أو الجهاد.

الفرع الثاني: الراجح في مسألة "آخر ما نزل من القرآن الكريم" ومؤيداته.

رجح أكثر العلماء، وجماهير المفسرين[11] في مسألة "آخر ما نزل من القرآن الكريم" قول الله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**﴾ [البقرة:281].

وذكر الزرقاني "أن الذي تستريح إليه النفس منها هو أن آخر القرآن نزولا على الإطلاق قول الله في سورة البقرة: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**﴾، وأن ما سواها أواخر إضافية أو مقيدة بما علمت"[12].

وهذا ما ينبغي ترجيحه بناء على المؤيدات، والاعتبارات التالية[13]:

-الآية مناسبة لختام الوحي، والتشريعات الإلهية؛ لأنها تذكر بالآخرة، وتحث على الاستعداد ليوم الرحيل، والتأهب للقاء الله باكتساب الصالحات، واجتناب السيئات، والترهيب من سوء العاقبة؛ بسبب عدم الامتثال لأوامر الله.

-نصت أغلب الآثار التي ذكرت الآية على المدة التي عاشها النبيﷺ بعد نزولها، ومن ذلك ما رواه ابن جرير الطبري في تفسيره "عن حجاج عن ابن جُرَيْجٍ قال: قال ابن عبّاس: «آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ [البقرة: 281]» قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: «يَقُولُونَ: إِنَّ النَّبِيَّﷺ مَكَثَ بَعْدَهَا تِسْعَ لَيَالٍ، وَبُدِئَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَمَاتَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ»"[14].

وذكر المدة يدل على عدم نزول آية بعدها، فلو نزلت آية بعدها لما كان لذكر المدة معنى، أما الآيات الأخرى فلم يرد معها ذكر المدة التي عاشها النبيﷺ بعد نزولها.

المبحث الثاني: الدلالات والفوائد الوعظية والأخلاقية لآخر ما نزل من القرآن الكريم.

في آخر آية نزلت من القرآن الكريم دلالات ومعان وعظية وأخلاقية تستنتج، وفوائد تجنى، فالآية تحمل في مضامينها رسائل تذكيرية، وتحذيرية، وترهيبية؛ قصد الله إيصالها للبشر عموما، والمقرضين والمرابين خصوصا؛ وهذا ما سأبينه في ثنايا هذا المطلب.

المطلب الأول: الالتزام بالتقوى سبيل الفوز والنجاة.

الفرع الأول: حقيقة التقوى.

التقوى هي مقام الصالحين الخائفين من ربهم، الوجلين من عذابه، وتنشأ عن تغلغل الإيمان في القلب، وصدق معرفة الله حق المعرفة.

وقد اختلف العلماء في تعريفها[15]، ومن أجمل، وأحسن ما ذكر في ذلك تعريف طلق بن حبيب، عندما سئل عن التقوى فأجاب بقوله: "اعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله؛ فالتقوى ترك معاصي الله على نور الله مخافة عقاب الله"[16].

فالتقي وفق هذا التعريف يلتزم طاعة الله، ويجعلها همه وغايته في الحياة، مستنيرا في ذلك بنور ربه، فيستجيب لأوامره، ويعمل بما أوجبه عليه من غير تهاون، ولا تقصير،

راجيا بذلك الثواب منه، ويترك ما نهى عنه الله، ويجتنب معصيته، مستهديا في ذلك بنور ربه؛ مخافة غضبه، وخشية العقاب، وسوء المغبة.

وهو في ذلك حذر وجل من أن يراه الله في زمرة العصاة، والمتخلفين عن طاعته، والمقصرين في واجباتهم، ويستحي من ربه أن يراه في غير مقام الطائعين، والمستجيبين لأوامره.

الفرع الثاني: دلالات ومعاني التقوى في الآية.

لا ينافي تقوى الله الأمر بتقوى أمور أخرى، كاتقاء اليوم الذي يرجع فيه العباد إلى الله كما نصت عليه هذه الآية، واتقاء النار في قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾ [آل عمران:131]، واتقاء الفتنة في قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً**﴾ [الأنفال:25]، فاتقاء هذه الأمور من صميم تقوى الله[17]؛ وذلك أن اتقاء هذا اليوم بإعداد العدة، والتأهب للقاء الله، واتقاء النار بالالتزام بأوامر الله، والقيام بالواجبات، واجتناب المحرمات التي نهى عنها الله، واتقاء الفتنة بترك مخالفة أوامر الله.

وليس مقصود الآية اتقاء اليوم في حد ذاته، فالزمان لا يُتقى، وإنما يُتقى ما يجري فيه، والمراد بذلك اتقاء أهواله، والتأهب للقاء الله بالتزود بالأعمال الصالحة، واجتناب المعاصي[18]؛ ولذلك ورد لفظ "يوم" في الآية نكرة للتهويل[19].

والأمر بالتقوى في الآية له معنيان معنى خاص ومعنى عام، فالمعنى الخاص ينبئ عنه السياق الذي وردت فيه الآيات، فالآية خاتمة آيات الربا، وانظار المعسر؛ ولهذا جاءت الآية مرهبة ومرغبة[20]، مرهبة من الربا، والتعامل به أخذا وعطاء[21]، ومحذرة المرابين من التمادي في ظلم الآخرين، وظلم أنفسهم بأخذ زيادة غير مشروعة، ودعوتهم إلى التوبة، والاكتفاء برؤوس أموالهم التي أقرضوها، ولا يتجاوزونها؛ لأن تجاوزها تعدي لحدود الله، ومن تعدى حدوده؛ استحق غضب الله وعقابه، ومرغبة في انظار المعسر في حال عجزه

عن سداد القرض، وإمهاله حتى يتيسر ماليا، بل وحثه على التصدق به عليه؛ فالتصدق يسبق إنظار المعسر في الخيرية عند الله.

والمعنى العام تدل عليه الآية باعتبارها آخر الآيات نزولا، فهي عامة من وجهين، الوجه الأول: أن الآية تعظ جميع الناس برهم وفاجرهم ولا تستثني أحدا[22]، والوجه الثاني: أن الآية خاتمة الأحكام والشرائع، وقد جاءت مناسبة للختام بدعوتها إلى تقوى الله؛ بفعل كل مأمور به، وترك كل منهي عنه[23].

الفرع الثالث: سبل تحقيق التقوى.

السبيل إلى إعمار القلب بالتقوى، وعمل الجوارح بمقتضاها أن يعرف الإنسان ربه حق المعرفة، فيقدره قدره، ويعظمه حتى تكبر عظمته في قلبه؛ ومما يحقق معرفة الله التفكر في خلقه، والسياحة الفكرية، والتأملية في ملكوته، فكل شيء في الكون يشي بوجوده، ووحدانيته، وعظمته، وقدرته، فإذا تفكر العبد، وتأمل في صنع الله؛ رسخ الإيمان في قلبه، ومعلوم أن الإيمان هو أساس التقوى.

وذكر الله يؤنس القلب ويقويه، والمداومة عليه تستجلب معية الله، ورقابته في النفس، وتشحن القلب بخشية الله وتقواه. كما أن عبادة الله بإخلاص وصدق كفيلة بأن تزرع تقوى الله في قلب صاحبها، ومن أمثلة ذلك أن الصلاة الصادقة الخاشعة ناهية عن الفحشاء والمنكر، والصوم بإخلاص جنة ووقاية لصاحبه عن ارتكاب المعاصي والمآثم.

ولا يخفى أثر ذكر الموت، والتفكر في أهوال يوم القيامة في تليين القلب، وغرس التقوى فيه[24].

فإذا تغلغلت التقوى في القلب، وعملت الجوارح بمقتضاها؛ أثمرت قبول الأعمال الصالحة، والفلاح في الدنيا والآخرة، والفوز برضوان الله وجنته، والتزحزح عن نار جهنم[25].

المطلب الثاني: التأهب للرجوع إلى الله.

الفرع الأول: دلالات الرجوع إلى الله ومعانيه في الآية.

الرجوع إلى الله له معنيان، المعنى الأول: أن الإنسان يخلق في بطن أمه ويتولى الله تصريف أموره، فإذا ولد أصبح التصرف في الظاهر للوالدين، ثم إذا كبر تدبر شؤون نفسه، فإذا مات رجع التصرف إلى الله، ثم يعيد خلقه من جديد كما خلقه أول مرة، قال الله تعالى: ﴿**كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ**﴾ [الأنبياء:104].

والمعنى الثاني: هو الرجوع إلى ما أعده الله لعباده من الجزاء، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وكلا المعنيين مقبول، وصحيح يقتضيه لفظ الآية وسياقها[26].

الفرع الثاني: ضرورة التأهب للرجوع إلى الله.

إن مَرَدَّ الإنسان بعد كدحه في الدنيا، وامتحانه، وابتلائه بالمسرات، والمضرات إلى ربه، قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الانْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ**﴾[الانشقاق:6]، فيحاسبه على أعماله، ويجازيه بحسبها، فإن قدم الصالحات؛ كان جزاؤه أن يسبغ عليه رضوانه، ويدخله جنته، وإن عمل السيئات، كان جزاؤه أن يصب عليه سخطه، ويحشره في نار جهنم، فالجزاء من جنس العمل، قال الله تعالى: ﴿**مَن جَآءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ –امِنُونَ۞ وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [النمل: 89-90].

لذلك كان لزاما على العبد أن يعد العدة، ويتجهز للقاء ربه؛ بفعل الصالحات، والقيام بالواجبات، وترك المنكرات، واجتناب السيئات، فكل ما يقرب العبد إلى ربه يدخل ضمن الأهبة، والاستعداد للرحيل، والرجوع إلى الله، فيتشرف الإنسان به عند لقاء الله، ويجده في صحيفته، ويثقل به ميزان حسناته، وتعلو به درجته في الجنة.

الفرع الثالث: الوسائل المعينة على التأهب للرجوع إلى الله.

مما يعين على التأهب والاستعداد للقاء الله؛ أن ينظر العبد في كتاب الله، وسنة نبيه، ويتأمل في النصوص التي تتحدث عن جنة الخلد، وما أعده الله لعباده من صنوف

الخيرات، وأنواع النعيم، ومن ذلك قول الله تعالى:﴿**إِنَّ الذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنَ أَحْسَنَ عَمَلاً ۞ اولَئكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَمُ الانْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنَ اَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتكِئِينَ فِيهَا عَلَى الارَآئِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا**﴾ [الكهف:30-31]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«**قَالَ اللَّهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ فَاقْرَؤوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾** [السجدة:17]»[27]، والتفكر في الجنة يهيج الاشتياق لدخولها، والتنعم بنعيمها، ويدفع إلى فعل الصالحات، واجتناب السيئات؛ وبذلك يكونَ العبد قد تأهب واستعد للرجوع إلى ربه.

وذكر الموت دواء فعال في قمع النفس، وكبح شهواتها، وتحريض الذات على التزود بالتقوى، والعمل الصالح اللذان بهما يلقى الله، ومن النصوص الدالة على تذكر الموت، والتفكر في الآخرة ما رواه أبو هريرةﷺ عن رسول اللَّهِﷺ أنه قال: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ**»[28]. يَعْنِي الْمَوْتَ.

ومما يحقق الاستعداد والتأهب للقاء الله؛ أن يسارع الانسان، ويبادر إلى فعل الصالحات، وأن يكون سباقا لطاعة ربه، ينافس غيره في ميادين الخير، قال الله تعالى: ﴿**سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ والارْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَقِينَ**﴾ [آل عمران:133]. وكذلك محاسبة النفس على التفريط، والتقصير في جنب الله، فحال الكيس الفطن أنه يزن الأعمال، والأقوال قبل أن توزن عليه، ويحاسب نفسه قبل أن يحاسب، فعن شدَّادِ بن أوسٍ عَنِ النَّبِيِّﷺ قال: «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ**»[29].[30]

المطلب الثالث: الحث على قصر الأمل، والترهيب من طول الأمل.

الفرع الأول: مفهوم قصر الأمل، والحث عليه.

البند الأول: مفهوم قصر الأمل.

عرف أحمد فريد "قصر الأمل" فقال: "هو العلم بقرب الرحيل وسرعة انقضاء مدة الحياة"[31]، وأرى في التعريف قصورا لكون قصر الأمل ليس مجرد علم ومعرفة، بل يتعداه إلى الاعتقاد والفعل، فقد يكون الانسان عالما بقرب الرحيل، وأن الحياة الدنيا فانية، ولكنه يركن إليها، ويتعلق بها، ويأمل في المزيد منها مع طول العمر، وهمه الدنيا، ولا همة له في الآخرة.

ويمكن أن أعرف "قصر الأمل" فأقول: هو قطع التعلق بالدنيا، والاستعداد للرحيل منها رغبة في الآخرة.

البند الثاني: الحث على قصر الأمل وأساليب تحقيقه.

الدنيا مهما طالت فإنها فانية، والانسان لا يدري متى تخترمه الموت، وهذا كفيل بأن يجعل الأمل في الحياة الدنيا قصيرا، وقد كان النبيﷺ يحث أصحابه وأمته على عدم إطالة الأمل في الحياة الدنيا، وجعلها ممرا لا مقرا، فعن مجاهد عن عبد الله بن عمرﷺ قال: «أخذ رَسُولُ اللَّهِﷺ بِمَنْكِبِي» فقَالَ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**»، وكان ابن عمر يقولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ؛ فَلَا تَنْتَظِرُ الصَّبَاحَ، وإِذَا أَصْبَحْتَ؛ فَلَا تَنْتَظِرُ الْمَسَاءَ، ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمَنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»[32].

ولا يصلح حال المؤمن في دينه إلا إذا تملص من حب الدنيا وزينتها، وأمات الرغبة في الدنيا، والتطلع إليها في قلبه، عند ذلك يستعيض القلب عن حب الدنيا بحب الآخرة، ويعظم شوقه للقاء ربه، وتزداد رغبته في الصالحات، وولوج سفينة الطاعات، التي تبلغه الجنات، وعدم إطالة الفكر في الدنيا من شأنه أن يحقق قصر الأمل[33].

الفرع الثاني: الترهيب من طول الأمل وأسبابه وعلاجه.

البند الأول: الترهيب من طول الأمل.

لا خير في طول الأمل؛ لأنه يجعل القلب معلقا بالدنيا، ذاهلا وغافلا عن الآخرة، ويحمله على الحسد، وتسويف التوبة، واتباع الهوى، والسير على خطى الشهوات[34]؛ لذلك ذم المولى عز وجل طول الأمل فقال: ﴿**ذَرْهُمْ يَاكُلُوا وَيَتَمَتَعُوا وَيَلْهِهِمُ الامَلُ**﴾ [الحجر: 3]

البند الثاني: أسباب طول الأمل وعلاجه.

يرجع طول الأمل إلى سببين، أولهما الجهل، وثانيهما حب الدنيا، فالجهل أن يستبعد الانسان الموت، فالشاب يعيش على الأمل؛ فالموت في نظره للشيوخ دون الشباب، والصحيح يرى بُعد الموت عنه، فهو يعتقد أن الموت أقرب للمرضى منه إلى الأصحاء، ولو نظر ببصيرة؛ لأدرك أن الموت لا وقت له، ولا سن له، ولا فصل له، ولا علاقة له بصحة أو مرض.

أما حب الدنيا، والتعلق بها يمنع من تفكر الموت، ويؤدي إلى الشغف بالأماني، وتسويف التوبة إلى الكبر، وتأجيل الطاعة إلى الشيخوخة.

وعلاج الجهل يكون بالفكر الصافي والسليم، الذي منبعه القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وسماع الحكمة البليغة، أما حب الدنيا فعلاجها يكمن في ترسيخ الإيمان بالله، واليوم الآخر، وتشويق النفس برضوان الله، وما أعده الله لعباده الصالحين في جنة الخلد، وترهيبها من عقاب الله، وغضبه[35].

المطلب الرابع: الاشعار بالفناء والموت.

الفرع الأول: الموت مصير كل حي.

الآية مشعرة "بالآخرية المستلزمة للوفاة"[36]، فمصير كل حي الموت، ومفارقة الدنيا، وتوديع الأحباب، قال الله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ**﴾ [آل عمران:185]، وقد كتب الله الفناء على كل شيء، وجميع الموجودات تحمل بذور فنائها في ذاتها، ماعدا ذاته سبحانه فهو حي لا يموت، قال الله تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص:88]،

والله أخبر نبيه محمداﷺ أن مصيره ومصير الناس جميعا الموت، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ**﴾[الزمر:30].

وحال الدنيا أنها "سريعة الفناء قريبة الانقضاء، تعد بالبقاء ثم تخلف في الوفاء، تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرة، وهي سائرة سيراً عنيفاً، ومرتحلة ارتحالاً سريعاً، ولكن الناظر إليها قد لا يحس بحركتها فيطمئن إليها، وإنما يحس عند انقضائها"[37].

"وأجمعت الأمة على أن الموت ليس له سن معلوم، ولا زمن معلوم، ولا مرض معلوم، وذلك ليكون المرء على أهبة من ذلك مستعدا لذلك"[38].

الفرع الثاني: فضل ذكر الموت وما يعين عليه.

يحسن بالمؤمن أن يذكر الموت دائما؛ حتى لا يغتر بالدنيا الفانية، ويستعد في كل حين وآن إلى الارتحال إلى الآخرة[39].

والذي يقوي ذكر الموت في النفس تلاوة القرآن الكريم، وخاصة الآيات التي تذكر بالموت، والنظر في حال الأقارب، والأصدقاء الذين كانوا يسرحون ويمرحون إلى أن وافاهم الأجل، وباغتهم الموت، وزيارة المرضى في الدور والمستشفيات، ودخول المقابر بين الفينة والأخرى، كل ذلك له دور في تجديد ذكر الموت في النفس[40].

المبحث الثالث: الدلالات والفوائد العقائدية لآخر ما نزل من القرآن الكريم.

في آخر آية نزلت من القرآن الكريم دلالات وفوائد عقائدية تستخلص، أراد الله بها تثبيت عقيدة الناس في قلوبهم، وتصحيح الانحرافات العقائدية، وهذا ما سأوضحه في تضاعيف هذا المبحث.

المطلب الأول: إثبات أن الحساب والجزاء في الآخرة.

الفرع الأول: الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء.

الآية دالة دلالة صريحة على أن الحياة الدنيا دار عمل لا حساب فيها، ولا جزاء، والآخرة دار حساب، وجزاء لا عمل فيها، قال عليرضي الله عنه: «إن الدنيا قد ترحلت مدبرة،

وإن الآخرة مقبلة، ولكل واحد منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، فإن اليوم عمل، ولا حساب وغدا حساب ولا عمل»[41].

فالدنيا دار يقبل الله فيها التوبة، والإنابة إليه، وطلب العفو والصفح والمغفرة، أما الآخرة فهي يوم حساب ومجازاة[42]، وعمل الصالحات مجاله الدنيا، فإذا مات الإنسان انقطع العمل إلا ما استثناه الشرع؛ لانقطاع مرحلة الامتحان، والابتلاء، وحلول أول منزل من منازل الآخرة، ثم دار الحساب والجزاء، فعن أبي هريرةﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِﷺ قَالَ: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[43].

الفرع الثاني: التوفيق بين العمل للدنيا والعمل للآخرة.

المؤمن مطالب أن يجعل الدنيا مزرعة للآخرة، فيستثمر ما أعطاه الله، ووهبه إياه في الدنيا؛ ليكون زاده للآخرة، "فإن حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة"[44]، ولا بأس بعد ذلك أن يأخذ حظه منها، ومصداق ذلك قول الله تعالى: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾[القصص:77].

والعمل للدنيا والآخرة لا يمكن تحققه، فإذا عمل للآخرة، وسعى لها سعيها؛ أهمل الدنيا، وكان فيها من الزاهدين، وإذا عمل للدنيا، وأفنى عمره في تحصيل ملذاتها، ونيل شهواتها؛ قصر في حق الآخرة، وكان من الخاسرين الهالكين، والحصيف الفطن من يؤثر الباقية على الفانية، والعامرة على الخربة، قال الفضيل: «من أراد الآخرة أضر بالدنيا، ومن أراد الدنيا أضر بالآخرة، ألا فأضروا بالدنيا، فإنها دار فناء، واعملوا لدار البقاء»[45].

المطلب الثاني: إثبات قدرة الله تعالى على البعث.

الفرع الأول: الدلائل القرآنية الدالة على قدرة الله تعالى على البعث.

نص منطوق الآية بما لا يدع مجالا للشك أو الريب أن مرجع العباد جميعا إلى الله تعالى، وفي هذا دلالة على إثبات قدرة الله على بعث الخلائق؛ بعد أن وافتهم المنية،

وصاروا رميما[46]، فالله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء، وقدرته لا حدود الله، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأمره بين الكاف والنون، ودون أن يكرر الأمر، فيكون المأمور به بلا تأخير، ولا تأجيل[47].

وعندما شكك المشككون في البعث؛ بيَّن الله أن إعادة الخلق، وبعثهم بعد الموت هو

كخلقهم من تراب أول مرة، قال الله تعالى: ﴿**كَمَا بَدَأْنَا أَوَلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ**﴾ [الأنبياء:104]، بل إن بعث الخلائق أهون عليه، وأيسر من بداية الخلق، قال الله تعالى: ﴿**وَهُوَ الذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**﴾ [الروم:27].

ومن تجليات قدرة الله على البعث؛ أن الله يبعث الناس من قبورهم كبعث نفس واحدة، قال الله تعالى: ﴿**مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾ [لقمان:28]، وهذا يفيد إثبات

البعث، وسهولته ويسره[48]، وعظيم قدرة الله، وعجيب فعله جلَّ شأنه في خلقه بعد مماتهم.

الفرع الثاني: الدلائل الحسية على قدرة الله على البعث.

مما يدل على قدرة الله على بعث الخلائق يقظة الناس من نومهم، فالنوم أخو الموت[49]، وهو شبه به، والبعث شابه اليقظة من النوم[50]، فالقادر على إيقاظ الخلائق من نومهم، وإعادتهم للحياة؛ لا شك أنه قادر على أن يبعثهم جميعا؛ ليوفيهم جزاء أعمالهم.

ومن الأدلة الحسية الدالة على قدرة الله على البعث رؤية إبراهيم وعزير[51] لعظيم قدرة الله تعالى على إحياء وبعث الموتى رأي العين ، فبين الله لإبراهيم بصورة حسية وعملية قدرته على البعث؛ بإحياء الطيور بعد تقطيعها، وتوزيع أجزائها على الجبال، قال الله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْي المَوْتَى قَالَ أَوَ لَمْ تُومِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ اَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ**

مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ اَدْعُهُنَّ يَاتِينَكَ سَعْيًا واعْلَمَ اَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة:260]، وأظهر الله لعزير قدرته على البعث؛ بإحيائه وإحياء حماره، بعد مائة عام من الموت، وعيناه تريان ذلك وتشاهده[52]، قال الله تعالى: **﴿أَوْ كَالذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحيي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا اَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرِ اِلَى طَعَامِكَ لَمْ يَتسَنَّهْ وَانظُرِ اِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايةً لِلنَّاسِ وَانْظُرِ إِلَى اَلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** [البقرة:259].

فأزال الله بذلك كل شك قد يختلج في النفس البشرية في قدرته سبحانه على البعث، وأقام الأدلة الحسية التي تزيل كل ريب ينتاب قلب الإنسان حول قدرته جلَّ شأنه على إعادة الحياة إلى الأجساد بعد الموت.

المطلب الثالث: إثبات كسب الإنسان للأعمال، وانتفاعه وتكليفه بها.

الفرع الأول: إثبات كسب الإنسان للأعمال.

نص قوله تعالى: **﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾**[البقرة:281] على أن للإنسان كسب[53]، فالآية أضافت كسب الأعمال إلى نفس الإنسان، فكل فعل يفعله أو قول يقوله هو نتاج إرادته وكسبه، ويتحمل نتائجه، ومآلاته، وجزاءه عند ربه.

"وفي الآية رد على الجبرية[54]، الذين ينكرون كسب العبد، ويعتقدون أنه مجبور على ما يفعل من خير أو شر، وأنه كالريشة في مهب الريح، فقد أثبتت للعبد كسبًا، وأنه مجزيٌّ عليه خيرًا كان أو شرًا"[55].

ويكمن الرد على الجبرية في أن الله خلق الإنسان، وخلق أفعاله، وأحواله، قال الله تعالى: **﴿واللهُ خَلَقَكُمْ ومَا تَعْمَلُونَ﴾** [الصافات:96]، وزوده بصفة يتمكن بها من إحداث إرادته، وأفعاله بمشيئته جل شأنه، قال الله تعالى: **﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝فَأَلْهَمَهَا**

فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس:7-8]، وقوله تعالى: : **﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللهُ﴾** [الإنسان:30]، ورزقه عقلا يميز به بين الحق والباطل، وجعله حجة عليه، وبعث إليه الأنبياء والرسل، وأنزل الكتب على رسله لهدايته، وجعل ذلك حجة عليه كذلك، وأمره ونهاه، ومكنه من اختيار فعله، حيث أمره سبحانه بما هو قادر على فعله، ونهاه عن ما هو قادر على تركه، ورتب الثواب والعقاب على فعله وتركه[56].

الفرع الثاني: انتفاع الإنسان بأعماله، وتكليفه بها.

البند الأول: انتفاع الإنسان بأعماله.

النفس يوم القيامة توفى كسبها من الأعمال، لا كسب غيرها، فكسب العبد من الصالحات ينتفع به، ولا ينتفع به غيره، ولا ينتفع هو بكسب غيره؛ إلا ما دلت السنة على انتفاع غيره بكسبه، أو انتفاعه بكسب غيره إذا نواه له، كالصوم، والحج، والدعاء، والصدقة، وغير ذلك[57]. وقد يذهب كسب العبد إلى غيره في الآخرة مجازاة له على انتهاك حقوق غيره، واعتدائه على الآخرين بالقول أو الفعل، كالغيبة، والسب والشتم.

البند الثاني: تكليف الإنسان بالأعمال.

لفظ "كل" في الآية من صيغ العموم في أصول الفقه[58]، ولكن عمومه مخصوص بالمكلفين البالغين العاقلين، فلا يدخل فيه الصبيان؛ لعدم بلوغهم، ولا المجانين؛ لفقدانهم عقولهم، ولا البهائم؛ لانعدام تكليفها، فالعموم في الآية مخصوص بهم[59].

المطلب الرابع: العدالة الإلهية في الثواب والعقاب.

الفرع الأول: الله منزه عن الظلم.

ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله: **﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾** [البقرة:281]، وفيها دلالة على أن الله منزه عن الظلم والجور، فهو لا يظلم الناس مثقال ذرة، وقد منع الظلم عن ذاته العلية، ومنعه عن خلقه، فعنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ

وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا**»[60].

وقد "اتفق المسلمون، وسائر أهل الملل على أن الله تعالى عدل قائم بالقسط، لا يظلم شيئا؛ بل هو منزه عن الظلم"[61].

ومقتضى العدل أن توضع الأمور في مواضعها[62]، وأن ينال كل إنسان ما يستأهله، ويستحقه من ثواب وعقاب، والله "أظهر للعالمين كمال عدله بنفي الظلم تارة [بقوله]: ﴿**وما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾ [ق:29]، وبثبوت العدل [تارة] أخرى [بقوله]: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ**﴾ [الأنبياء:47]"[63].

الفرع الثاني: الجزاء في الآخرة من جنس العمل في الدنيا.

عندما يُبعث الناس، ويُردون إلى ربهم؛ لا يبخس الله أعمالهم، بل يُوفيها إليهم كاملة غير منقوصة، "فلا ينقص من حسناتهم، ولا يزاد من سيئاتهم"[64]، فالجزاء الإلهي في الآخرة مماثل لعمل العبد في الدنيا[65]، وهو من جنسه، فإن عمل خيرا فخير، وإن عمل شرا فشر.

فالله لا يظلم عبده مثقال ذرة، "وكيف يُظلم من جوزي بالإساءة مثلها، وبالحسنة عشر أمثالها، كلا بل عدل عليك أيها المسيء، وتكرم عليك فأفضل وأسبغ أيها المحسن، فاتقى امرؤ ربه فأخذ منه حذره، وراقبه أن يهجم عليه يومه، وهو من الأوزار ظهره ثقيل، ومن صالحات الأعمال خفيف، فإنه عزَّ وجل حَذَّر فأعذر، ووعظ فأبلغ"[66]، ومصداق ذلك قول الله تعالى: ﴿**مَن جَآءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**﴾ [الأنعام:160].

ولا يُحمِّل الله النفس ذنوب الآخرين، ولا يطرح على الشخص أوزار غيره من المذنبين وخطاياهم، "ولا يعاقب أحدا إلا بذنب، ولا يعاقب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه،

وإرسال الرسول إليه"[67]، قال الله تعالى: ﴿**وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِبِينَ حتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾ [الإسراء:15].

خاتمة:

أورد فيما يلي أهم النتائج التي توصل إليها البحث:

-تميز القرآن الكريم بالنزول المرحلي، فقد نزل على مرحلتين، أولاهما نزل نزولا سماويا دفعة واحدة، وثانيهما نزل نزولا أرضيا على مراحل وفترات حسب الوقائع.

-الراجح عند جماهير العلماء والمفسرين أن آخر آية نزلت من القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ** ﴾ [البقرة:281].

-حملت الآية دلالات وفوائد عقائدية، وأخلاقية ووعظية ناسبت ختام نزول الوحي.

-حقيقة التقوى أن يطيع الإنسان ربه؛ استهداء بنور الله، راجيا بذلك ثوابه، وأن يترك معصية ربه؛ استهداء بنور الله، خائفا من عقابه.

-الأمر بالتقوى في الآية له معنيان؛ معنى خاص، ومعنى عام، المعنى الخاص يتجلى في تحذير المرابين من التمادي في الظلم، وأمرهم بالكف عن أخذ ما لا يحل لهم، وترغيب المقرضين في انظار المعسر وامهاله، والدعوة إلى التصدق عليه. والمعنى العام يتضح في دعوة الآية عموم الناس برهم، وفاجرهم إلى فعل كل مأمور به، وترك كل منهي عنه.

-الدعوة إلى التأهب للقاء الله، والاستعداد للرجوع إليه؛ بالمسارعة إلى فعل الصالحات، وترك المنكرات، ومحاسبة النفس على التقصير، والتفريط، ومما يعين على ذلك التفكر في الموت؛ فإنه هاذم اللذات، والتفكر في الجنة، وما أعده الله لعباده الصالحين.

-لا سبيل لصلاح حال المؤمن في دينه؛ إلا بقصر الأمل في الحياة، وترك حب الدنيا، وكبح شهوات النفس، ورغباتها.

-مصير كل مخلوق الموت، والفناء، والمتفق عليه أن الموت ليست له علاقة بسن معين، ولا زمن معين، ولا بمرض الإنسان أو صحته، وتفكر الموت يعين على الاستعداد للرحيل، وعدم الاغترار بالدنيا، وتلاوة القرآن الكريم تساعد على ذكر الموت.

-الدنيا دار عمل لا حساب فيها، ولا جزاء، والآخرة دار حساب وجزاء، لا عمل فيها.

-الله قادر على بعث الخلائق بعد الموت كما خلقهم أول مرة، فلا يعجزه شيء في الأرض، ولا في السماء.

-الله خلق الإنسان، وخلق أفعاله، وأعطاه إرادة يختار بها الفعل، فكل ما يفعله الإنسان

هو نتاج إرادته، وكسبه، وفي هذا رد على الجبرية الذين يعتقدون أن الإنسان مجبور، ولا كسب له.

-لا يوفى الإنسان إلا كسبه، فلا ينتفع بكسب غيره؛ إلا ما دلت السنة على الانتفاع به.

-لفظ "كل" في الآية عام مخصوص بالمكلفين البالغين العاقلين، ولا يشمل الصبيان والمجانين، ولا البهائم.

-الله منزه عن الظلم والجور؛ فهو يجازي الإنسان على حسب عمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

الهوامش:

[1] -ينظر: محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، د. ط، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، د. تاريخ النشر، 229/1؛ وجلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، اعتنى به: مصطفى شيخ مصطفى، ط. 1، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق-بيروت، 1434هـ/2013م، ص94.

[2] -ينظر: محمد بن عبد الله الزركشي، المصدر السابق، 229/1؛ وجلال الدين السيوطي، المصدر السابق، ص94-95.

[3] -ينظر: محمد بن عبد الله الزركشي، المصدر السابق، 228/1؛ وجلال الدين السيوطي، المصدر السابق، ص94.

[4] -ينظر: محمد بن عبد الله الزركشي، المصدر السابق، 230/1؛ وجلال الدين السيوطي، المصدر السابق، ص96.

[5] -ينظر: جلال الدين السيوطي، المصدر السابق، ص96.

[6] -ينظر: محمد بن عبد الله الزركشي، المصدر السابق، 231/1؛ وجلال الدين السيوطي، المصدر السابق، ص97.

[7] -ينظر: محمد الطيب الباقلاني، الانتصار للقرآن، ت: محمد عصام القضاة، ط.1، دار الفتح-دار ابن حزم، عمان- بيروت، 1422هـ/2001م، 243/1.

[8] -ينظر: جلال الدين السيوطي، المصدر السابق، ص67 وما بعدها.

[9]-ينظر: محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، د. ط، دار الفكر، بيروت، 1408هـ/1988م، 97/1 وما بعدها.

[10] -ينظر: محمد الطيب الباقلاني، المصدر السابق، 245/1-246؛ ومحمد عبد العظيم الزرقاني، المصدر السابق، 97/1 وما بعدها.

[11] -ينظر: محمد بن محمد الماتريدي، تأويلات أهل السنة، ت: فاطمة يوسف الخيمي، ط. 1، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، 1425هـ/2004م، 232/1؛ وعبد الحق بن غالب بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ت: عبد السلام عبد الشافي، ط. 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ/2001م، 378/1؛ ومحمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم (المنار)، ط. 2، دار المنار، القاهرة، 1366هـ/1947م، 175/10؛ ومحمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، د. ط، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، 97/3؛ وهبه الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ط. 12، دار الفكر-دار الفكر المعاصر، دمشق-بيروت، 1435هـ/2014م، 21/1؛ ونورالدين عتر، علوم القرآن الكريم، ط. 6، مطبعة الصباح، دمشق، 1416هـ/1996م، ص36؛ ومصطفى ديب البغا ومحي الدين ديب مستو، الواضح في علوم القرآن، ط 2، دار الكلم الطيب-دار العلوم الإنسانية، دمشق، 1418هـ/1998م، ص56-57.

[12] -محمد عبد العظيم الزرقاني، المصدر السابق، 100/1.

[13] -محمد عبد العظيم الزرقاني، المصدر السابق، 97/1-98.

[14] -محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، د. ط، دار ابن حزم، بيروت، 1434هـ/2013م، رقم الأثر: 6312، 148/3-149.

[15] -علي بن محمد الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، تصحيح: محمد علي شاهين، ط. 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1425هـ/2004م، 23/1-24؛ وأحمد فريد، التقوى الغاية المنشودة والدرة المفقودة، ط. 1، دار الصميعي، الرياض، 1414هـ/1993م، ص9 وما بعدها.

[16] -هناد بن السري، كتاب الزهد، ت: عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي، ط. 1، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، 1406هـ//1985م، 296/1-297.

[17] - ينظر: محمد بن صالح العثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة، ط. 1، دار ابن الجوزي، السعودية، 1423هـ، 151/1.

[18] - ينظر: محمد بن عمر فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ط. 1، دار الفكر، بيروت، 1401هـ/1981م، 113/7؛ ومحمد متولي الشعراوي، مراجعة وتخريج: أحمد عمر هاشم، د. ط، مطابع دار أخبار اليوم، د. ت. م. النشر، 1210/2.

[19] -ينظر: صديق بن حسن القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن، عناية: عبد الله إبراهيم الأنصاري، د. ط، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 1412هـ/1992م، 145/2.

[20] -ينظر: محمد أحمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، د. ط، دار الفكر العربي، د. ت. م. النشر، 1062/2.

[21] -ينظر: محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مراجعة: عبد الرحمن العدوي، د. ط، دار المعارف، القاهرة، 1412هـ/1992م، 641/1.

[22] -ينظر: علي بن أحمد الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، ت: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، ط. 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ/1994م، 400/1؛ ومحمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ط. 1، دار ابن الجوزي، القاهرة، 1436هـ/2015م، 466/2.

[23] -ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، المصدر السابق، 97/1؛ وعبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، عناية: عبد الرحمن بن معاذ اللويحق وعزالدين ضلي، ط. 2، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق-بيروت، 1434هـ/2013م، ص110.

[24] -ينظر: عمر سليمان الأشقر، التقوى تعريفها وفضلها ومحذوراتها وقصص من أحوالها، ط. 1، دار النفائس، الأردن، 1433هـ/2012م، ص35 وما بعدها.

[25] -ينظر: سعيد بن علي بن وهف القحطاني، نور التقوى وظلمات المعاصي في ضوء الكتاب والسنة، ط. 1، د. دار النشر، الرياض، 1420هـ/1999م، ص32 وما بعدها.

[26] -محمد بن عمر فخر الدين الرازي، المصدر السابق، 113/7.

[27] -رواه محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تخريج وتعليق: عزالدين ضلي وآخرون، ط.3، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق-بيروت، 1439هـ/2018م، كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، حديث رقم: 3244، ص847؛ ورواه مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم،

عناية: ياسر حسن وآخرون، ط. 2، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق-بيروت، 1439هـ/2018م، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث رقم: 7132، ص1164.

[28] -رواه محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، تخريج وتعليق: عزالدين ضلي وآخرون، ط. 1، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق-بيروت، 1434هـ/2013م، كتاب: الزهد، باب: ما جاء في ذكر الموت، حديث رقم: 2460، ص851، وقال: "هذا حديث غريب حسن".

[29]-رواه محمد بن عيسى الترمذي، المصدر السابق، كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: دون ذكر اسمه، حديث رقم: 2627، ص888، وقال: "هذا حديث حسن".

[30] -ينظر: محمد بن أحمد القرطبي، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، ت: الصادق بن محمد بن إبراهيم، ط.1، مكتبة دار المنهاج، الرياض، 1425هـ، ص123.

[31] -أحمد فريد، البحر الرائق في الزهد والرقائق، ط. 2، مكتبة الصحابة، جدة، 1411هـ/1991م، ص253.

[32] -رواه محمد بن إسماعيل البخاري، المصدر السابق، كتاب: الرقاق، باب: قول النبيﷺ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**»، حديث رقم: 6416، ص1513.

[33] -ينظر: الحارث بن أسد المحاسبي، آداب النفوس، ت: عبد القادر أحمد عطا، ط. 2، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1411هـ/1991م، ص100-101.

[34] -ينظر: الحارث بن أسد المحاسبي، المصدر نفسه، ص102.

[35] -ينظر: محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، تخريج وتعليق: محمد وهبي سليمان وأسامة عمورة، ط. 4، دار الفكر-دار الفكر المعاصر، دمشق-بيروت، 1437هـ/2016م، 3325/4 وما بعدها.

[36] -إبراهيم الأبياري، الموسوعة القرآنية، د. ط، مؤسسة سجل العرب، د. م. النشر، 1405هـ/1984م، 282/2.

[37] -محمد بن محمد الغزالي، المصدر السابق، 2024/3.

[38] -محمد بن أحمد القرطبي، المصدر السابق، ص124.

[39] -ينظر: محمد بن محمد الغزالي، المصدر السابق، 3312/4؛ ومحمد بن أحمد القرطبي، المصدر السابق، ص123.

[40] -ينظر: محمد بن محمد الغزالي، المصدر السابق، 3316/4.

[41] -هناد بن السري، المصدر السابق، 291/1.

[42] -ينظر: محمد بن جرير الطبري، المصدر السابق، 149/3.

[43] -رواه مسلم بن الحجاج، المصدر السابق، كتاب: الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، حديث رقم: 4223، ص689.

[44] -محمد بن أحمد القرطبي، المصدر السابق، ص127.

[45] -أحمد بن علي الخطيب البغدادي، المنتخب من كتاب الزهد والرقائق، ت: عامر حسن صبري، ط. 1، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1420هـ/2000م، ص116.

[46] -ينظر: محمد بن صالح العثيمين، المصدر السابق، 398/3.

[47] -ينظر: محمد الأمين بن محمد الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، د. 1، دار الفوائد، مكة، 1426هـ،329/3.

[48] -ينظر: لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ط. 3، مطبعة المصحف الشريف، د. م. النشر، 1413هـ/1993م، 75/8.

[49]-وردت عبارة "النوم أخو الموت" في الحديث الذي رواه جابر بن عبد الله ﷺ أنه قال: «سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ أينام أهل الجنة؟ قال: **النَّوْمُ أَخُو المَوْتِ، وَلاَ يَمُوتُ أَهْلُ الجَنَّةِ**». رواه سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الأوسط، ت: طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، د. ط، دار الحرمين، القاهرة، 1415هـ/1995م، حديث رقم: 919، 282/1؛ وأحمد بن الحسين البيهقي، الآداب، اعتناء وتعليق: أبو عبد الله السعيد المندوة، ط. 1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1408هـ/1988م، باب: في ذم كثرة النوم، حديث رقم:677، ص 278، وقال: "هذا حديث غريب بهذا الإسناد".

[50] -ينظر: محمد سيد طنطاوي، المصدر السابق، 597/1.

[51] -وقيل حزقيال، وقيل غير ذلك، وذهب جماهير المفسرين إلى أنه عزير. ينظر: علي بن أحمد الواحدي، المصدر السابق، 372/1؛ ومحمد سيد طنطاوي، المصدر السابق، 596/1.

[52] -ينظر: إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير ابن كثير، اعتناء: محمد أنس مصطفى الخن، ط. 1، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق-بيروت، 1433هـ/2012م، 445/1؛ وجلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط. 1، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، 1424هـ/2003م، 213/3.

[53] -ينظر: لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، المصدر السابق، 483/1.

[54] -الجبرية تنسب إلى جهم بن صفوان الترمذي، وهي فرقتان: الجبرية الخالصة، والجبرية المتوسطة، فالأولى تنفي على العبد القدرة على الفعل، وتفوضه إلى الله، والثانية تثبت قدرة للعبد غير مؤثرة أصلا. ينظر: محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل، ضبط وتعليق: كسرى صالح العلي، ط. 1، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق-بيروت، 1436هـ/2015م، ص103؛ وإسماعيل العربي، معجم الفرق والمذاهب الإسلامية، ط.1، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، 1413هـ/1993م، ص109 وما بعدها.

[55] -لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، المصدر السابق، 483/1.

[56] -ينظر: محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، تحرير: الحساني حسن عبد الله، د. ط، مكتبة دار التراث، القاهرة، د. ت. النشر، ص281؛ وعبد الحميد بن باديس، العقائد الإسلامية، رواية وتعليق: محمد الصالح رمضان، ط. 2، مكتبة الشركة الجزائرية مرازقة بوداود وشركاؤهما، الجزائر، د. ت. النشر، ص86-87.

[57] -ينظر: محمد بن صالح العثيمين، المصدر السابق،398/3 وما بعدها.

[58] -ينظر: محمد بن أحمد بن جزي، تقريب الوصول إلى علم الأصول، ت: محمد علي فركوس، ط. 1، دار التراث الإسلامي، الجزائر، 1410هـ/1990م، ص75.

[59] -ينظر: سليمان بن عبد القوي الطوفي، الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية تفسير القرآن العظيم، ت: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، ط. 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1426هـ/2005م، ص114.

[60] -رواه مسلم بن الحجاج، المصدر السابق، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، حديث رقم: 6572، ص 1072.

[61] -أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، جامع الرسائل (رسالة في معنى كون الرب عادلا، وفي تنزهه عن الظلم)، ت: محمد رشاد سالم، ط. 1، دار العطاء، الرياض، 1422هـ/2001م، 121/1.

[62] -ينظر: محمد بن محمد الماتريدي، المصدر السابق، 234/1.

[63]-الحسن بن محمد النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب القرآن، ت: زكريا عميرات، ط. 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1416هـ/1996م، 101/1.

[64] -جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، المصدر السابق، 391/3.

[65] -محمد أحمد أبو زهرة، المصدر السابق، 1062/2.

[66] -محمد بن جرير الطبري، المصدر السابق، 149/3.

[67] -إسماعيل بن عمر بن كثير، المصدر السابق، 175/4.